« قلب الانسان .. ووسوسة الشيطان »

قبل البدء في شرح كتاب الاخلاق او الحقائق لا بد من ذكر نبذة مما يتعلق بالموضوع مما يستفاد من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة ، الله سبحانه وتعالى » عندما انزل هذا الدين انزله للبشر كافة ولذلك يسر لهم سبل العمل به .. وسبل معرفته ـ قال سبحانه وتعالى : (ما جعل عليكم في الدين من حرج) ـ وقال سبحانه وتعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ويقول النبي « صلى الله عليه وآله » « جئتكم بالشريعة السمحاء » وكثير من مثل ذلك عن الروايات منه « ص » .. ومعنى ذلك ان الدين يسر لا عسر فيه فما ربما يترأى الى الاذهان من تعسر العمل في الحقيقة هذا الترائي لا يرجع الى حقيقة الدين بل أما ان يرجع الى حقيقة وضع الانسان نفسه في موضع يحرج فيه او يكون فيه بالدواعي النفسية والموضوعية لترك تطبيق الدين واما ان يكون من اللجوء الى غير منهج الدين كمنهج « المجاهدة الشاقة » .

المجاهدة الشاقة عسر لا يسر !

وهذا جمع عليه بعض علماء الاخلاق الذين لا يركنون الى أهل البيت « عليهم السلام » فانهم يأخذون منهج المجاهدة الشاقة ومجاهدة النفس هي الجهاد الاكبر لكن المجاهدة الشاقة كما يعبرون عنها ليست من هذا المنهج ليست من منهج هذا الدين لانها عسر لا يسر وجوهر الدين يسر وليس عسرا على اننا ما وجدنا من سلك منهج « المجاهدة الشاقة » قد سار في التطورات التي سار فيها اهل البيت « عليهم السلام » ـ نعم ربما اوردتهم مقامات دنيوية ردئية لكنها لم توصلهم الى مقامات وتطورات صالحة دينية ـ فاذن العمل بالشريعة ليس فيه عسر وتنفيذ اوامر الله « سبحانه وتعالى » ليس فيه عسر بل ان مورد الحرج منفي من الشريعة « ما جعل عليكم في الدين من حرج » ـ يعني ، انه كلما وصل الانسان الى درجة الحرج الحقيقي فان الحكم يرتفع عنه في ذلك الظرف بدليل « نفي الحرج وجود الحرج في الشريعة » هذا اصل يجب ان يبنى عليه .

المقامات السامية :

الاصل الثاني الذي يجب ان نلاحظه: ان الله « سبحانه وتعالى » اهل الانسان لمقامات سامية عالية ولكي يتمكن الانسان من التوصل الى هذه المقامات العالية/ السامية اراد منه تحقيق امور كلية .. وهذه الامور الكلية لو جاء الانسان وهو يريد ان ينفذها عملا فانه لا يتمكن فاذا كانت السبب الى المقامات العالية هذه الامور الكلية المطلوبة منه كالطاعة المحضة والعلم الحقيقي والانكشاف التام وتفريغ النفس والقلب عما سوى الله « سبحانه وتعالى » اذا كان تطبيق ذلك لا يتمكنه الانسان الا يكون ذلك لو لم ييسر الله له السبيل ولو لم يجعل له السبيل الى تحقيق هذه الامور الكلية ألا يكون ذلك من العسر والحرج في الشريعة ؟ ألا يكون ذلك في الحقيقة سداً ومنعا للانسان من التطور والتوصل الى هذه المقامات السامية فبناء على منهج المجاهدة الشاقة يكون هذا التحقيق غير ممكن !

أصول الشريعة :

اما بالنسبة الى أصول الشريعة فاننا اذا نظرنا الى كلمات النبي « ص » وكلمات الائمة عليهم السلام » نجد ان الله « سبحانه وتعالى » قد اراد من الانسان تحقيق امور كلية فعلا توصله الى المقامات السامية العالية لكنه جعل السبيل اليها عمل امور جزئية صغيرة يتمكن الانسان من تحقيقها وتنفيذها وهذه الامور الجزئية الصغيرة توصله الى هذه التطورات الكلية التي بدورها ترفعه الى المقامات السامية ولذلك ورد عن النبي « صلى الله عليه وآله » « من استقل قليل الرزق حرم من كثيره » ومعنى ذلك ان من يستقل الشيء القليل من الرزق يحرم من الشيء الكثير من الرزق .. ومفهوم هذه الرواية ان من لم يستقل قليل الرزق لا يحرم من كثير الرزق بمعنى ذلك ان الرزق الكثير انما يحصل عن طريق قبول الرزق القليل .. واما لو رفض الانسان الرزق القليل فانه لا يكون عنده رزق بالكلية حتى يتوصل الى الرزق الكثير وكذلك ما ورد عنه وعن آل بيته « صلى الله عليه وعليهم اجمعين » (لا تستهينوا بصغائر الذنوب ولا تستحقروا صغائر الخيرات) (لا تحقر الخير وان كان صغيرا ولا تستصغر الذنب وان كان حقيرا اولا تستصغر الخير وان كان قليلا) فان الخير القليل يوصل الى تنفيذ الامر الكلي وان استحقار الامر الصغير يحرم من الوصول يقطع السبيل من الوصول الى الامر الكلي وكذلك احتقار الذنب الصغير يورد في الذنب الكبير ، الحاجب عن الله « سبحانه وتعالى » والحاجب عن تطور الانسان الى الدرجة الكلية او الى المقامات السامية ومن اجل ذلك ورد في الرواية أنه : (لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار) ومعنى ذلك ان الانسان لا ينبغي له ان يستحقر او ان يخجل من نفسه ان يعمل عملا من الخيرات مهما كان ذلك العمل حقيرا صغيرا فان هذا العمل الحقير

الدرس الثاني عشر

لفضيلة الشيخ

سليمان المدني

★ منهج مجاهدة النفس الشاقة ليست من منهج هذا الدين لانها عسر لا يسر .. وجوهر الدين يسر وليس عسراً ★

الصغير اذا عمله يفتح عليه باباً من العلم كبيرا ويوجد فى نفسه نكتة من النور ويكون لها اثر فعال فى تصفية القلب عما سوى الله « سبحانه وتعالى » .. وبعكس ذلك اذا استصغر الذنب فان استصغاره للذنب فى الحقيقة استصغار لمن منع منه ... والمشكلة فى الاستصغار ان الاستصغار بالعمل استصغار لمن امر به والاستصغار بالذنب استصغار لمن نهى عنه لذلك لا ينبغى استصغار ذنب مهما كان ذلك الذنب من الصغائر ولا ينبغى استصغار عمل مهما كان ذلك العمل من الامور الصغيرة المحقرة فى نظرك بل عليك ان تجهد نفسك فى ان تعمل كل هذه الاعمال مهما كانت صغيرة وان تترك هذه الذنوب مهما كانت حقيرة فانك اذا اخذت ذلك بنفسك على نحو الجد اوصلك ذلك الى تحقيق الامور الكلية التى ترفعك فى التطور الى المقامات السامية والكرامات الابدية .

مؤثرات ارتكاب الصغائر :

هذه الامور عندما يريد الانسان ان يجهد نفسه فيها ليس معنى ذلك انه لا يغفل لانه غير معصوم وهنا ياتى دور الرد على اهل المجاهدة الشاقة او نقض كلامهم من ان الانسان اذا لم يستهن بالصغيرة لا يؤثر عليه فعلها حتى يكون قد حرم من المقامات العالية بمجرد فعلها وبذلك ييأس من روح الله « سبحانه وتعالى » بل ان الذى يؤثر فيه فعلها على نحو الاستهانة ـ الاحتقار لها هذا يؤثر فى قلبه نكتة سوداء اما مجرد ارتكاب الصغيرة مع النية بعدها على عدم العودة اليها والاستغفار منها لا يؤثر فى قلبه يمحو اثرها بسرعة وكذلك لو انه غفل عن فعل مستحب من المستحبات او غفل بسبب دواعى الهوى والشهوة ، والغفلة المعرض لها غير المعصوم ـ دواعى النسيان ترك فعل شىء من الخيرات الصغيرة غير الموجبة الملزم بها لكنه لم يتركها على نحو الاستهانة بها لانها غير واجبة ـ هذا الترك لا يؤثر فى قلبه النكتة السوداء ... وحتى لو اثرها فان مجرد الندم على ترك ذلك وتوطيد النفس على العودة اليها فى اقرب وقت يزيل اثر الترك ... وعليه بل اننا فى التاريخ نشاهد قضايا كثيرة ممن كتب الله لهم السعادة بسبب امور بسيطة من الخير ... من ذلك ما ورد فى بعض الروايات فى ايام امامنا الكاظم « عليه السلام » عندما كان الامام الكاظم فى بغداد قبل ان يضيق عليه فى سجن « السديد » كان يسمح له بالخروج احيانا وكان يسمح للناس بالدخول عليه .

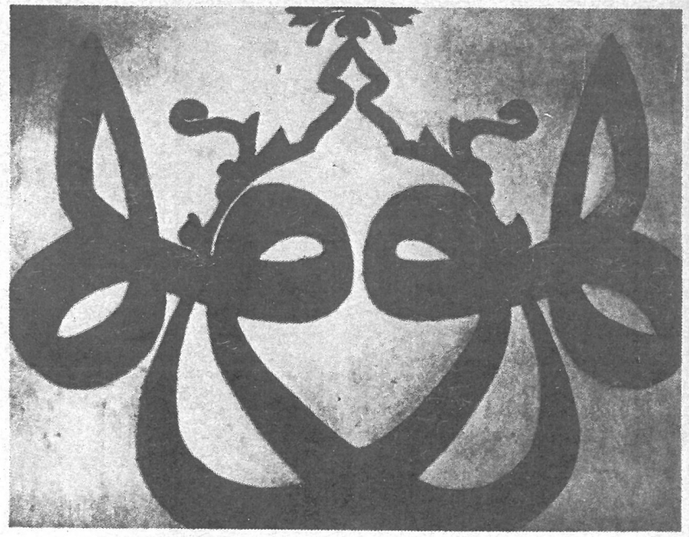

فضائل الطاعة الدائمة :

كان فى بغداد فى ذلك الوقت رجل من اثرياء القوم وهذا الرجل لم يكن ملتزما بالدين وكان يصرف امواله على جمع المغنيات يشترى اذا سمع بقينة جميلة خاصة اذا كانت تحسن الغناء يشتريها مهما كان ثمنها يجمع آلات اللهو فى بيته ويعمل حفلات الرقص واللهو والخمور وغير ذلك وهو لاه منغمس فى كل هذه الموبقات طيلة عمره وهو على هذه الحالة !

وفى يوم من الايام وهو يمشى فى الطريق ذاهبا الى متجره رأى ورقة صغيرة فيها آية من القرآن فى وسط الطريق انحنى عليها ورفعها ثم وضعها فى جيبه ـ لم ، يذهب الى متجره ولكنه توجه الى دكان العطار ، اشترى لها مثقالا من العطر فعطرها ـ وجد جدارا فيه خرق فى موضع رفيع لا تصل اليه الايدى ولا يخشى منه ان تسقط مرة اخرى فدس تلك الورقة فى ذلك الخرق الموجود بالجدار ثم انصرف الى متجره « هذا الرجل لم يعمل شيئاً آخر طوال حياته وهذا هو ما فعله « لكن هو لم يستحقر ذلك العمل عندما قام به ، شاء الله له ان يجعل هذا العمل فاتحة لارجاعه الى طريقه لان الرواية فى الحديث القدسى تقول (من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا) .

فى اليوم الثانى يمر الامام الكاظم « عليه السلام » على بيته ، احدى الخادمات فى القصر تخرج وهى تحمل شيئا من القمامة لتلقيه خارج البيت ـ يسألها الامام : أنت خادمة من ؟

تقول : خادمة فلان ...

يقول لها : املوك حر ام عبد ؟

تقول : يا سيجان الله الا تعرف مولاى حتى تسأل عنه هذا السؤال ؟

مولاى حر ...

فيردف قائلا : صدقت انه حر !!

وينصرف الامام « عليه السلام »

تدخل هذه الجارية « الخادمة » فتقول لمولاها : لقد مر رجل هذا اليوم ما رأيت مثله ؟!

يقول لها : كيف ؟ ماهى اوصافه !

تصفه له ... ينبهر فيقول : هذا هو الامام موسى ابن جعفر « عليه السلام »

يقول لها : هل كلمك ؟

قالت : نعم .

قال : ماذا قال ؟

تقول : سألنى : انت جارية من ؟

قلت له : جارية فلان فقال مولاك حر أم عبد ؟

استغربت من سؤاله فقلت له : انت لا تعرف مولاى حتى تسأل عنه هذا السؤال ؟!

وقلت له : مولاى حر ! فقال : صدقت انه حر ثم انصرف !!

قال : واخجلتاه !! الامام يمر على جهة بيتنا وانا لا أعلم وربما مر وسمع الغناء !!؟

ثم صرخ قائلا : آتونى بالآلات وكسرها ثم كسر جميع ا وانى الخمر وباع المغنيات واعلن توبتة لله .

بعد أيام قليلة يمرض هذا الانسان !

يؤتى له بالطبيب يفحصه ... الطبيب يعطيه القنينة ويقول لهم يوم غد وبعدما يجلس من النوم عليه التبول فى هذه القنينة واذا ما تم ذلك آتونى بالبول .

ويأتونه بالبول .. ويحمله فياتى الطبيب اليهم غاضبا اقول لكم آتونى ببول المريض لأحمله تأتونى ببول شخص آخر ؟

قالوا له : هذا هو بول المريض !

قال : اتعتقدونى غبيا!؟ هذا الرجل السكير طيلة عمره يبول هذا البول!؟

هذا بول قديس!

خال من جميع الشوائب !!

قالوا : هذا بول فلان !

انظر كيف طهره الله ؟ حتى الاثار الجسمية التى تشاهد عادة ويعرفها الاطباء طهره منها !!

ماهو مبدا السعادة لهذا الرجل ؟

عمل بسيط .. الانحناء على آية من آيات القرآن يرفعها يعتنى بها يعطرها ويضعها فى ثقب جدار !! هذه فاتحة عهده !!

عمل الخير طبعا ليس جبله فى غير المعصوم فلا بد من تعوده ـ يقول النبى « ص » (تعودوا الخير تعتادوه) فلا تظنوا ان الملكات الفاضلة ان الاخلاق الشريفة ان الطاعة الدائمة حصلت لكبار المؤمنين مثل سلمان وعمار وابى ذر والمقداد وغيرهم من اصحاب النبى « ص » وتلامذة الائمة الكبار ـ حصلت لهم جبلة وخلقه !

هذا شأن المعصوم ـ غير المعصوم يحتاج الى التدريب لتحصل له الملكات ـ الفضائل ـ فاذن لا طريق لهذا التدريب الا ان يعود الانسان نفسه على فعل الخير وان يدرب الانسان نفسه على كبح جماح شهوته عن الشر ... وبطبيعة الحال فى مبدا الامر يكون ذلك الامر فيه شدة على النفس لانها كالطفل لا ترضى ان تنفطم !!

الطفل عندما يراد ان يفطم يبكى ، يصرخ لا يرضى ان يفطم من ثدى امه ولكن لا بد من الصبر عليه حتى يتعود كذلك النفس حتى تنفطم عن اتباع الهوى والاراء وحتى تنفطم عن اتباع الشهوات ـ الاخلاق الذميمة لا بد من تعويدها وترويضها شيئا فشيئا لا يمكن اخذها دفعة واحدة فان هذا بالاضافة الى مافيه من العسر والحرج المنفى بالاية والرواية هذا مما لا يطيقه الناس بل ربما ينعكس الامر الى ضده فلا بد من اخذها بالتدريج شيئا فشيئا على امور الطاعة وترك المعاصى .

كتاب الحقائق :

والآن نعود الى كتاب الحقائق ـ قلب الانسان مثله العلماء بانه كالقبة المفتوحة من جميع الجوانب التى ترد اليها الانوار والاشارات الضوئية من سائر الحواس الخارجة والحواس الداخلة فهى ترد اليها صورة بعد صورة ومثالا بعد مثال إن خيرا فخير وان شرا فشر وتنطبع تلك الصور فيها او بتعبير آخر ان القلب كالمرآة تنطبع عليه صور المرئيات فكلما مر ذى صورة امام المرآة كلما انطبعت صورة ذلك المرئى فيها سواء ان كانت صورة ذلك المرئى قبيح المنظر او جميل المنظر تنطبع صورته فى المرآة على ماهى عليه ... وفى احاديث اهل البيت « عليهم السلام » (ان الله سبحانه وتعالى خلق قلب الانسان صالحا لكل الملكات الفاضلة والرديئة ومكن الانسان من ان يحدد ما يريد ان يوصله الى قلبه من الاراء والافكار والملكات سواء ان كانت صالحة ـ صادقة او باطلة خيرة او شريدة) ولذلك يقول النبى « ص » « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » .

الله له اصابع ؟

كيف يامسلمين تبكون الجسمانيات التجسيم ليست هذه حجة عليكم وانتم تدو نوا كتبكم ؟ قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن لان القلب فى الحقيقة ... تعتمره الملائكة وتعتمره الشياطين فالله « سبحانه وتعالى » يقلب ذلك القلب عن طريق الملائكة وعن طريق الشياطين وهذا « معنى بين اصبعين » فكما انت تقلب الاشياء باصابعك طبعا الملائكة والشياطين لا يخرجون عن قضاء الله وقدره كما لا تخرج انت لا يخرجون عن قدرة الله كما لا تخرج انت الا انه جعل لهما سبيل التسلط على قلبك جعل للملائكة سبيلا للتسلط على قلبك وسكناه فيكون بيتا لهم وجعل للشياطين تسلطا على قلبك وسكناه فيصير بيتا لهم وهذا معنى « التقليب » وهذا معنى انه بين اصبعين من اصابع الرحمن !

ويبقى الصراع الدائم بين الملك والشيطان على ذلك البيت فان تغلب الملك ودخل البيت غير مستوحش وسكنه لا يتمكن الشيطان من دخوله الا خلسة مارا مرورا سريعا وهو خارج ـ هارب قبل ان يلتفت اليه صاحب البيت وهذا معنى قوله تعالى (والذين اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالطائف معناه المار بسرعة !

الشيطان والانسان :

الشيطان بعد ان يسكن الملك فى القلب لا يجد فرصة للدخول يمر هو لا يترك الشيطان لا يترك المرور بالقلب ـ يحاول مادام الانسان حياً الشيطان لا يخرج ! لكن مع سكنى الملك/ الملك لا يأذن له بالدخول يضربه يطرده لو اراد الدخول وبعكس ذلك لو تمكن الشيطان « والعياذ بالله » من احتلال القلب وسكناه وملئه فالشيطان نجس وكلب لذلك لا يدخل الملك لكن الملك لا يترك ايضا يمر على قلب الانسان يحاول ان يدفع الانسان لطرد هذا العدو مهما يكن ذلك الانسان كافرا مهما يكن الملك لا يترك ولذلك تصدر افعال الخير من الكفار يرجعون الى انفسهم احيانا يذكرون الله قليلا ما بخلاف المؤمن الذى يتذكر الله كثيرا فاذن الصراع بين الملك والشيطان دائم مادامت الحياة .

من الذى يتمكن من الترجيح ؟ من الذى يتمكن من مناصرة الملك او من مناصرة العدو ؟ الانسان ذاته اذا اخذ الانسان نفسه بالعلم واستبصر فى العلم واوتى الحكمة عن طريق المعرفة وسارع الى عمل الخير مطبقا بذ لك العلم الذى تحصل عليه تنفتح له ابواب العلوم يدرك حيل الشيطان ـ مغازيه وعندئذ يتمكن من طرد عدوه يتمكن من مناصرة وليه الذى هو الملك على عدوه الذى هو الشيطان فاذا صار قلبه بيتا للملك ـ طبعا يخلص ذلك البيت لله « سبحانه وتعالى » يكون ذلك القلب بيتا لله (لا تسعنى ارضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن) .. وبطبيعة الحال هو لا يتمكن من محاربة عدوه الا باستعمال الحكمة فى تحليل مغازى الشيطان وحيله والاخلاق الذميمة التى يثيرها فى النفس ليست من السهولة على ما يبدو لكثير من الناس بل ربما لا يشعر الانسان بنفسه مسيئا والحال انه فى اتم غاية الاساءة لله « سبحانه وتعالى » ولنفسه ولذلك يقول سبحانه :

(واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ـ او ـ (كالذى زين له الشيطان سوء عمله فراه حسنا) فاذن تزيين الشيطان للانسان سوء العمل ليس بمعنى انه يزين له الكبائر دائما او ترك الطاعات دائما يزين له طاعة محبوباً لله « سبحانه وتعالى فعلا ولكنه عن طريق ذلك شيئا فشيئا يجره عن طاعة الله !!

مثلا : وظائف العلماء .. ماهى وظيفتهم ؟

وظيفة العلماء بطبيعة الحال تعليم الناس وارشادهم ووعظهم وهدايتهم الى الله سبحانه وتعالى وهذه هى الوراثة التى ورثوها عن الانبياء « ص » ـ طبعا ـ « العلماء ورثة الانبياء » هل بمعنى انهم يريدون حكم الخلافة او الامامة ؟ مقام النبوه ؟ لا ! ماذا يرثون ؟

مقام الانذار (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) فاذن وراثتهم من الانبياء « صلوات الله وسلامه عليهم » هو مقام الانذار ـ يعنى مقام التعليم ـ الوعظ ـ الارشاد ـ الدعوة الى الله وليس مقام الامامة ـ الخلافة ـ النبوة ذلك المقام خاص بالمعوصومين ولا يصل الى درجة العلماء ـ ياتى الشيطان الى هذا العالم الناسك الورع التقى ولا يقول له تعال افعل كذا او هكذا ! لانه لن يعطيه يقول له : انت مقصر فى حق الله سبحانه وتعالى الا ترى الى الشيطان كيف يهلك عباد الله ـ كيف يضلهم ؟ كيف يقودهم فى المعاصى ؟ كيف يبعدهم عن سبيل الله ؟ الست ممن اخذ الله عليهم العهد بان يدعوا الى سبيله وان يرشدوا اليه ؟ اما فى قلبك رحمه على خلق الله تخرج اليهم تعظهم ـ ترشدهم تأمرهم بالمعروف وتناههم عن المنكر ؟

طبعا هذه دعوة صحيحة ليس بها لبس !

يخرج العالم يشتغل بوعظ الناس وتعليمهم وبارشادهم ودعوتهم ويأتى له الشيطان فيقول له : انت اذا بقيت بهذا المنطق المتساهل اذا بقيت بهذا المظهر غير اللائق ينفر الناس منك ؟!

عليك ان تذوق الغاظ ـ عليك ان تجامل بعض الناس حتى تستطيع ان تجرهم الى الدين عليك ان تصانع حتى تستطيع ان تكسبه لانك اذا لم تفعل ذلك نفر الناس منك وهذه امور مما يحبها الله !!

فيأخذ الرجل يتصنع فى ملبسه فى منطقه يصانع هذا الرجل يداري ذلك الانسان ـ لماذا ؟ حتى لا يفلت منه هذا الرجل « ما عنده فيه القربة » ولكن بماذا دخل اليه « اشرك ما كان لله مع غيره !!

صار العمل مشتركاً .. بعد ان كان اصله لله !

فهو اول ما بدا يرشد ويوعظ فعلا يتخاص لله « سبحانه وتعالى » الآن صار له باب يجمع بين الله وبين قلبه !!

طبعا ـ تحسين المنطق ليس قربة الى الله « سبحانه وتعالى » بل به رياء ايضا !!

لان مدارة الخلق محبوبة عند الشرع وهو ياتى من هذه الجهة لأنها مستحبة وينبغى للمؤمن ان يدارى خلق الله «برهم وفاجرهم» هذا الأمر الموجود فى الشريعة هو لا ياتى عن غير طريق الأوامر الشرعية لأنه اذا أتى عن غير الأوامر الشرعية لا يسمع كلامه لكن لا يجعل المدارا قربة الى الله بحيث لا ينقطع فلان .. وهذا ليس تطبيق المستحب هذا لغرض آخر دخل به الرياء وحب السمعة فاختلب العمل الشرعى ضار وبدلا من ان يكسب لهذا الانسان حسنات ان يسبب له سيئات !

وينظر الى فعله ذلك فيه جميل على الناس ومنّه ! فى البداية كان العمل لله ودخل به الشرك الآن وبعد ان صار ان ما يفعله فيه جميل على غيره احسان لغيره وعلى الناس ان يجازوه ويقدروه بسبب ذلك ـ طبعا ـ ضاع عليه أصل العمل !